# الدِّرَّةُ العمرية

# في

# بيان أن جرح المجروحين

# ضرورة دينية

لأبي عبد الله

أبي بكر بن ماهر بن عطية بن جمعة

## بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم –رحمني الله وإياك– أن الجرح والتعديل ضرورة دينية في كل عصر وفي كل جيل؛ ذلك لأن الناس رجلان عدل ومجروح، ولا يستقيم أمر الناس في دينهم ودنياهم إلا بإقامة علم الجرح والتعديل والعمل به، فلا يتم الاحتراز من المجروح إلا بمعرفته، كما لا يتم اعتماد العدل إلا بمعرفته.

فالعدل يجب قبول أخباره بخلاف المجروح، فإنه لا يجوز قبول أخباره، وحاجة الناس إلى معرفة العدول والمجروحين تعم أمور الدين والدنيا، وإذا كان الناس يحتاجون إلى معرفة العدول والمجروحين من أصحاب المهن والصنائع من حدادة، ونجارة، وتجارة بيعًا وشراءً، ونحو ذلك، حاجة ماسة، فحاجتهم إلى معرفة العدول والمجروحين من نقلة الأخبار، وحملة الآثار، ورواة العلم، ماسة من باب أول؛ لعظم أمر الدين وفضله، وعلو قدره، إذ إن الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة متوقفة على الاستمساك بهذا الدين، كما أن المعيشة الضنك في الدنيا والشقاوة في الآخرة متوقفة على ترك الاستمساك بهذا الدين.

ولقد دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على أن أكثر الناس ضالون ومجروحون، وأنه كلما تقارب الزمان واقتربت الساعة ظهر الفساد وانتشر وكثر أهله من الكفار والفسقة، وأن الأمانة تقل في الناس ويقل أهلها، ويقل الإيمان في الناس ويقل أهله، ويقل العلم في الناس ويقل أهله، ويكثر الجهل في الناس ويكثر أهله، ويكثر الشر في الناس ويكثر أهله، حتى إن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق.

وهذه الكثرة من المجروحين، والقلة العدول المأمونين حادية إلى معرفة هؤلاء وهؤلاء، وتمييز هؤلاء من هؤلاء، حتى يبني الناس أمر دينهم ودنياهم تبعًا لذلك بحيث يقبلون خبر العدول الأمناء الثقات في أمر دينهم ودنياهم، ويردون خبر المجروحين في دينهم ودنياهم.

وإذا كان الله عز وجل قد أمر بالتبين من نبأ الفاسق –أي فاسق– في قوله –تعالى–:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}

فقد دل قوله في الآية بالمفهوم على أنه لا يجب التبين من خبر العدل –أي عدل– بل يجب قبول خبره كما هو كلام أهل العلم استدلالاً بآية الحجرات، وبناءً على ذلك يجب قبول خبر العدل سواء كان عالمًا أو عاميًا، إذ لا يجوز التوقف في قبول خبر العامي العدل؛ لأن في هذا التوقف مخالفة للآية السابقة.

وهل يجوز للعامي أن يجرح من استحق الجرح عنده أم لا؟

الجواب هو أن للعامي أن يجرح من استحق الجرح ممن خالف العلم الضروري الذي يضطر إليه كل مؤمن عالم أو عامي بلا بحث ولا استنباط ولا نظر في أدلة، إذ إن العامي ليس من أهل البحث في الأدلة والنظر فيها والاستنباط منها.

فللعامي أن يحكم على النصراني –مثلاً– بأنه نصراني كافر، وعلى اليهودي بأنه يهودي كافر، وعلى قاطع الصلاة بأنه قاطع صلاة وفاسق، وعلى قاطع الرحم بأنه قاطع رحم وفاسق، وعلى شارب الخمر بأنه شارب خمر وفاسق، وعلى آكل الربا بأنه آكل ربا وفاسق، وعلى الرافضي بأنه رافضي خبيث، إلى غير ذلك من الأمور التي يعلمها العامي ويشترك في معرفتها مع العالم، بخلاف المسائل والصور الخفية التي يحتاج مثلها إلى نظر وبحث واستنباط من الأدلة.

فمن منع العامي من الحكم على أصحاب مثل تلك الصور المذكورة بما يناسبها من كفر أو فسق أو بدعة، وحرَّج عليه في ذلك، فليس معه أثارة من علم تدل على ما ذهب إليه، بل إنه مخالف للنقل والعقل؛ لأنه لما كان هذا العامي مسلمًا وسنيًا كان حتمًا في العقل أن يكون عالمًا بأن ما كان مناقضًا للإسلام والسنة فليس إسلامًا ولا سنة، وليس صاحب ذلك مسلمًا ولا سنيًا.

فكما لا يجوز فتح باب الحكم على الأشخاص للعامي على مصراعيه بما في ذلك المسائل الخفية والمشكلة، والتي تحتاج إلى بحث ونظر واستنباط، فلا يجوز إغلاقه أمامه في المسائل الظاهرة الجلية المعلومة من الدين بالضرورة لدى العامي والعالم، **فإن قيل:**

إن المعلوم من الدين بالضرورة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، **قلنا:**

أجل، وحينئذ يكون قد خرج هذا المعلوم من الدين بالضرورة في هذه الحالة عن كونه معلومًا من الدين بالضرورة بهذا الاعتبار من الاختلاف المذكور، فلا إشكال[1].

فالكلام هنا في جواز حكم العامي على المخالف للمعلوم من الدين بالضرورة لا على من خرج أمره عن ذلك ممن لا يسع العامي الحكم عليه باعتبار خفاء أمره وإشكاله عليه[2].

وإذا كان يجوز للعامي -في الجملة- جرح المجروحين، فإنه يجوز لطلبة العلم -فضلاً عن العلماء- جرح المجروحين من باب أولى.

وإذا رؤي للعالم كلام كثير بالتجريح في أناس كثيرين، فالعيب ليس في العالم الجارح، وإنما العيب في المجروحين المعيبين، أما العالم فإنه يقوم بما أوجب الله عليه من ذلك نصحًا لعباد الله، وتحذيرًا لهم من الأخطاء والأهواء، وصيانة للدين من أن يدخل فيه ما ليس منه.

ولما كانت النفوس -إلا ما عصم الله- تحب من يمدحها وتكره وتبغض من يذمها، كان أهل الأهواء يحبون ويألفون من يمدحونهم ولو بالباطل، ويكرهون ويبغضون من يذمهم ولو بالحق.

والحق أن أهل الأهواء يتضررون بكلام أهل العلم فيهم، مع كثرتهم وقلة أهل العلم، ولكن لما كان الحق قويًا والباطل ضعيفًا، كان لكلام أهل العلم صدى شديد ومدى بعيد، حتى إن أهل الأهواء ليتكلمون بكلام أهل العلم فيهم على سبيل ذم أهل العلم وتشويههم والتلبيس على مستمعيهم، فإذا بهم يفضحون أنفسهم ويشهرون بها، وينادون على أنفسهم بلسان الحال أنهم مجروحون، بل إنهم سبب في تعريف غيرهم بأهل العلم وكلامهم فيهم من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، فسبحان الله، رب ضارة نافعة، وأمرهم كما قيل:

**وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ... أتاح لها لسان حسود**

**لولا اشتعال النار في جذل الغضا ... ما كان يُعرف طيب نشر العود**

فقد فعلوا بأنفسهم من التشهير بها بسبب حكايتهم كلام أهل العلم ما قد لا يفعله بهم كلام أهل العلم، فإذا تأملت ذلك وجدته من العجائب، ولله في خلقه شئون، والحمد لله الذي كفى السلفيين وأهل العلم.

فالله يكفي أولياءه، يكفيهم المستهزئين والساخرين والعائبين والمتنقصين والهمازين اللمازين، كما كفى نبيه -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حيث قال: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}

وإني والله كلما سمعت بطعن في السلفيين في مكان أو آخر استبشرت بذلك وبشرت إخواننا بأن هذا دليل احتراق هؤلاء الطاعنين، وأن مثل هذه الطعون تؤكد بُعْد هؤلاء الطاعنين عن السلفية التي ادعوها كذبًا وزورًا، وتؤكد لنا جهلهم وبعدهم عن طريق العلم وأهله، وأنهم بذلك يفضحون عن أنفسهم وعن مذهبهم بما يزيل الاشتباه والشك عند من عنده أدنى شك أو اشتباه في حقيقة هؤلاء، فالحمد لله الذي كفانا بالسنة وآوانا إليها، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي.

وما من أذى ينال السلفي فيصبر بالله وفي الله إلا كان سبيل رفعة له، وخسف ومسخ ووضع لمن آذاه.

ولقد أخبرني شخص بعد آخر أعرفهما يريدان أو يفكران في الخروج من بلدتهما، ولاشك في عظم فتنة تؤول ببعض الناس إلى مثل هذا، وأُخبرت أن شخصًا آخر أعرفه قد سافر قبل إلى بلدة مسلمة وأنه أخبر أنه لا يعود، ولاشك في عظم فتنة تؤول بصاحبها إلى ذلك.

والسبب في هذا هو التهاجر والتخاصم في الدين.

والذي يسعني أن أقوله هنا، ولا يسعني غيره هو أن هناك ما هو أيسر على هؤلاء من ذلك، ألا وهو سلوك سبيل الاستقامة باتباع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وسلوك سبيل العلماء الكبار، والبعد عن سلوك سبيل أنصاف العلماء أو قل أشباه العلماء ولا علماء، فهؤلاء الثلاثة المذكورون لا أعرفهم بمتابعة كبار أهل العلم ولا بنصرة إخوانهم السلفيين السائرين بسير كبار أهل العلم خصوصًا في هذا الزمن الذي كثرت فيه الفتن واشتدت وتفاقمت، فإنه لا مخرج من تلك الفتن وأشباهها وأمثالها إلا بالتمسك بالكتاب والسنة والعض عليها وعلى المنهج السلفي بالنواجذ، والسير في

---

١- فما كان معلومًا من الدين بالضرورة عند عامي ما -مثلاً- قد لا يكون معلومًا بالدين من الضرورة عند عامي غيره.

١- فما كان معلومًا من الدين بالضرورة عند عامي ما قد لا يكون معلومًا من الدين بالضرورة عند عامي آخر، فكل يتكلم على حسب ووفق علمه وقدر وسعه، وقد قال -تعالى-: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} فلا تكليف إلا بما يطاق.

ركاب أهل العلم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، وهم منارات يستدل على الحق بهم، فمن خالف هؤلاء، وركب رأسه، واغتر بأناس لبسوا لباس المنهج السلفي وتزيوا بزيه، وصار لهم ذيوع وصيت وشهرة في الناس، والمذهب السلفي الحقيقي منهم براء، وفتنوا كثيرًا من الناس بكلامهم المشحون بالتلبيس والجهل بطريقتهم الوعظية والحماسية التي لا تمت للعلم بصلة، والتي لا يغتر بها إلا جاهل أو صاحب هوى.

**أقول:** من خالف أهل العلم واغتر بأمثال هؤلاء فلا يلومن إلا نفسه، وعلى نفسها براقش تجني، ولا ينفع هؤلاء أو غيرهم الخروج من بلدة ما إلى أخرى مادام على غير المنهج المرْضي السوي ألا وهو المنهج السلفي، ومتابعة أكابر أهل العلم لا صغار الأسنان سفهاء الأحلام، وحال هؤلاء كما قيل:

**المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار**

وكما قيل:

**ومن العجائب والعجائب جمة قرب الشفاء وما إليه وصول**

**كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول**

فوالله لئن ترك المبطلون والخطاءون باطلهم وأخطاءهم التي انتقدهم العلماء فيها وتكلموا فيهم من أجلها لاستراحوا وأراحوا أتباعهم، فإنهم قد أوقعوهم في فتن عظيمة يتحملونها ويتحملون تبعاتها، ويسألون عن ذلك كله يوم القيامة إن شاء الله، فإن تابوا وأنابوا وأصلحوا وبينوا فإن الله غفور رحيم وتواب رحيم.

ولكني لا أرى ما يبشرني برجوع هؤلاء عن باطلهم وغيهم وفسادهم -إلا أن يشاء ربي شيئًا- وهذا شأن الأهواء، فإنها تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، فأهل الأهواء لا يرجعون عن أهوائهم غالبًا، والله المستعان، ونعوذ بالله من الأهواء ومن الفتن ما ظهر منها وما بطن، والمفتون من فتن نفسه إذ تابع هؤلاء الفاتنين الذين مر ذكر شيء من أوصافهم والذين لا يعرفون بالرسوخ في العلم، وإنما نعرف عنهم -والله- زيغًا، وباطلاً، وكلامًا مضلاً، وجهلاً، وتفردًا عن زمرة العلماء المحققين للمنهج السلفي -وهم موجودون ولله الحمد- ولكنّ كثيرًا من الناس فُتنوا بهم حيث إنهم سمعوا لهم كثيرًا، ويَسألون -إذا نوقشوا- عن البديل أو البدائل، فندلهم على أهل العلم وعلى كتب وأشرطة أهل العلم المعاصرين والرحلة إليهم، إذ لا يزال باب الرحلة إلى أهل العلم للأخذ عنهم مشافهة، وسؤال أهل العلم، خاصة مع تيسر وانتشار وسائل التعلم في هذا العصر، **أقول:**

لا يزال باب ذلك مفتوحًا، نتكلم معهم بهذا ولكنهم يذكرون أعذارًا واهية وعللاً عليلة، نهاية مطاف أغلبهم فيها هو التجلد والثبات على ما هم عليه من السماع والأخذ عمن ذكرت لك شيئًا من أوصافهم، فكيف لا يقعون في الفتنة إذن!! وهم وشيوخهم ما بين فاتن ومفتون، وإذا كان هؤلاء يتجلدون في موالاة مشايخهم والتعصب لهم والحث على الأخذ عنهم والسماع لهم، فإنا نخبرهم -أيضًا- أن السلفيين متجلدون في البقاء على المنهج السلفي والأخذ عن أكابر أهل العلم والذب عن المنهج السلفي ما بقي فيهم عرق ينبض، وهم سعداء بهذا والحمد لله، ويحتسبون الأجر من الله على ذلك وعلى صبرهم على أذىً وبغي وظلم واعتداء يقع عليهم، ومنهجهم هو الأعلى والأظهر على كل المناهج، وأهله أرفع قدرًا وشأنًا من سائر أصحاب المناهج الأخرى، مع أن السلفيين قلة، وخصومهم كثرة، والفضل في ذلك لله -سبحانه وتعالى-.

وإن مما كنا نرجوه أن يتميز المنهج السلفي وأهله عن سائر المناهج وأتباعها، وقد حصل -ولله الحمد- من ذلك الشيء الكثير، وإننا لنزداد يقينًا وقتًا بعد وقت أن الرد على أهل الأهواء والأخطاء سبيل عظيم من سبل نصرة المذهب السلفي ونصرة أهله، وكلما سمعنا بجعاجع خصومه وفراقعهم تأكدنا من تضرر القوم بهذا المنهج، وخير لهم العود إلى مذهب السلف وإلى محبة أهله وخصوصًا أهل العلم الراسخين فيه وموالاتهم، إذ لا ينفع المخالف مع الحجة -حجة السني- صياح ولا عويل، وإن على السلفيين أن يؤكدوا على الرد على المخالف حتى يزدادوا نصرًا وعزًا وتمكينًا، وألا يغتروا بكثرة، فإن الحق لا يعرف بالكثرة، وإنما يعرف بالحجة والبرهان، قال -تعالى-:

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}

وقال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ}

والآيات والأحاديث الدالة على عدم الاعتبار والاغترار بالكثرة المبطلة كثيرة لمن تتبعها، فياكسرة من اغتر بتلك الكثرة.

ومن أعجب ما يكون في دعوة هؤلاء أنهم حالوا بين أتباعهم وبين العلماء، ومع أن العلماء في هذا العصر قلة، لا تكاد تجد ذكرًا للعلماء في مجالسهم، وإن ذكروا فعلى سبيل ذكر بعض الفتاوى لهم أو ذكر صحة حديث من ضعفه، هذا إن سَلِموا من التلبيس في النقل عنهم والكذب عليهم، وهذه الحيلولة بين العلماء وأتباع هؤلاء لا يستطاع القول بأنها غير متعمدة خصوصًا في هذا الزمن الذي اشتدت فيه الخصومة بين السلفيين عمومًا وعلمائهم خصوصًا وبين هؤلاء الذين لا يرفعون للعلم وللعلماء رأسًا، وما تكون تلك الحيلولة إلا لحجب أتباعهم عن الاطلاع على كتب وأشرطة أهل العلم الذين يتكلمون في رؤوس هؤلاء، فلو كان هؤلاء سلفيين لدلوا على هؤلاء العلماء خاصة مع أن الأرض قفر في هذا الباب إلا من ثلة قليلة من أهل العلم، أقام الله بهم الدين، وأزاح بهم بدعًا وشبهات وأصولاً وقواعد فاسدة، ومؤلفاتهم كثيرة ومعروفة، وهم – ولله الحمد – معروفون عند السلفيين وعند طلبة العلم منهم خاصة.

ولو دل هؤلاء أتباعهم على العلماء لانفض من شاء الله له أن ينفض عنهم، فمثل هذا الخوف من الإحالة على العلماء لا يورث أصحابه أمنًا، وإلا، فخبرني كيف لا يدل هؤلاء على العلماء وعلى الرحلة إليهم؟!

وكيف لا يحثون أتباعهم على الأخذ عنهم؟!

ألا يدل هذا الصنيع من الحيلولة المذكورة والحجب لأتباعهم عن السير في ركاب هؤلاء العلماء على فساد في منهج هؤلاء وسوء خبيئة وطوية؟!

فمن النصيحة لعامة الناس أن تدلهم على علمائهم، وأن تحثهم على الأخذ عنهم، فالله يقول: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}

والداعي الناصح الأمين بإخلاص إنما يدل غيره على أخذ العلم من أهله خصوصًا المسائل الاعتقادية والمنهجية التي تُخرج المخالف فيها عن دائرة أهل السنة والجماعة ومنهجهم إلى دائرة البدعة وحيزها من أوسع الأبواب، أما من لم يأبه بالعلماء، ونصب نفسه للفصل في المسائل التي خالف فيها أهل العلم فقد باء بالخسران، واستحق وعيد الكتمان، وكان من زمرة الغاشين الخائنين.

**وأقول –والحق يقال–**: إن هؤلاء المتبوعين قد حُرموا خيرًا كثيرًا إذ لم يتواضعوا للعلم وأهله، وكانوا في الوقت نفسه سببًا في حرمان أتباعهم من الخير الكثير، وكلما خبرتَ حال القوم عجبت كيف يتنكبون عن المنهج السلفي الواضح البين ويَدَعونه إلى سواه من المناهج المنحرفة مع أن الحق جلي وواضح وضوح الشمس التي لا تخفى إلا على العميان، بل وضوح الحق وظهوره أشد من وضوح وظهور الشمس في رابعة النهار.

إن هؤلاء الذين ربطوا أتباعهم بهم وحالوا بينهم وبين العلماء، لو أنهم كانوا على وفق الأصول السلفية والقواعد المرْضية والمسالك الشرعية، غير أنهم يزدرون العلماء لكان هذا أمرًا كافيًا لإخراجهم من دائرة السلفية؛ لأن ازدراء أهل العلم ليس من منهج السلف في شيء، وإنما هو من منهج تلك الخلوف الحائدة عن مذهب السلف، على أنه لا يُتصور أن يكون هناك إنسان سلفي في جميع أصوله وفي جميع منهجه ثم هو يزدري العلماء، هذا ما لا يتصور، وإنما الذي يتصور أن هذا لا يكون إلا صاحب هوىً حائدًا عن منهج السلف وعن منهج النبوة، فالعلماء هم ورثة الأنبياء.

فهؤلاء الخلوف لا يصلحون أن يكونوا أئمة يقتدى بهم في الخير؛ لأنهم ليسوا من ورثة الأنبياء على سبيل التحقيق.

**ومما ينبغي أن يقال هنا**: لما كان الباطل كثيرًا في أكثر الناس في جميع أبواب العلم والدين كان الراد للباطل والمجاهد في سبيل نقده ورده دالاً على الحق في جميع تلك الأبواب، فمثلاً الذي يرد على المشركين شركهم وعبادتهم لغير الله من دعاء الموتى والاستغاثة بهم ونحو ذلك، لابد أنه يدل بصنيعه ذاك على التوحيد، ولاشك في أن الذي يرد على نفاة الصفات ومعطليها ومحرفيها لابد أنه يدل بصنيعه ذاك على إثبات الصفات، والذي يرد خطأ في حكم شرعي يدل بصنيعه ذاك على أنه يقول بخلاف هذا الحكم، وهكذا.

فباب الردود باب عظيم من أبواب العلم، حيث إنك تعرف الباطل وتعرف الرد عليه وتعرف الحق معه، كل ذلك في آن واحد.

فالذي يرد على المخالفين في باب الألوهية هو داع إلى توحيد الألوهية، والذي يرد على المخالفين في باب توحيد الأسماء والصفات هو داعٍ إلى توحيد الأسماء والصفات، والذي يرد على المشركين في باب توحيد الربوبية هو داع إلى توحيد الربوبية، والذي يرد على أهل التحزب هو داع إلى وحدة المسلمين، والذي يرد على أهل التمذهب بغير السنة هو داع إلى السنة، والذي يرد على المقلدة هو داع إلى اتباع الرسول –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– والذي يرد على الغلاة والجفاة هو داع إلى التوسط والقصد، والذي يرد على الملل المخالفة للإسلام هو داع إلى الإسلام، والذي يرد على المنافقين هو داع إلى الإخلاص وإسلام الوجه لله، والذي يرد على البدع هو داعٍ إلى السنة، والذي يرد على الجهال هو داع إلى العلماء، والذي يرد على الكذابين هو داع إلى الصدق، وهكذا.

فكيف يُهَوِّنُ مُهَوِّن إذن من أمر الردود وهي كما ترى تخدم الإسلام كله؟!

ألا يدل تهوين هذا المهون من أمر الردود على فرط جهله وانحرافه عن العلم وأهله؟!

**أما أن يقال:** إن الردود أو كثرة الردود تقسي القلب.

**فيقال جوابًا على ذلك:** إن الردود على المبطلين كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ولدى علماء الأمة خلَفًا بعد سلف.

فهذه الدعوى تعود على الكتاب والسنة ومذهب السلف وأتباعه بالذم، وعلى هذا المنهج بأنه منهج يقسي القلب، وأن اتباعه قساة القلوب، ولا يخفى بطلان هذا وما فيه من الفساد العريض.

فالله -عز وجل- قد قال في كتابه: {وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}

والقرآن ذكر كما قال الله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

إذن فالقرآن مطمئن للقلوب ومما يؤكد ذلك قوله -تعالى-:

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}

فأهل الذكر هم أهل العلم، وأهل العلم هم أهل الذكر، وهم أولى الناس بالإيمان، وهم أولى الناس بخشية الله، قال -تعالى-:

{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}

فأهل العلم ليسوا قساة القلوب، بل وصفهم على خلاف ذلك.

ومعلوم أن أهل العلم هم الذين يردون على المخالف؛ لأن الرد فرع عن العلم بالمردود به والمردود عليه.

ولم لا يكون العلماء من أبعد الناس عن قسوة القلب؟!

وأعلم الناس بربه وهو رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قد وصفه ربه بقوله:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ}

أما قسوة القلوب فإنك تجدها هنالك عند الكفار وعند أصحاب المعاصي والأهواء، قال -تعالى- مخاطبًا بني إسرائيل:

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

وقال -تعالى-: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

ولما كان أهل المعاصي من أبعد الناس عن ذكر الله، كان عندهم من قسوة القلوب بقدر بعدهم عن ذكر الله، وكذا أهل الأهواء فإنهم قساة القلوب بقدر اتباعهم أهواءهم، فكما أن الكفر ممرض للقلب ومقسٍ له، وكما أن المعصية ممرضة للقلب ومقسية له، فكذلك الأهواء مقسية للقلب، قال تعالى:

{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

فالضال المتبع لهواه لابد أن يكون قاسي القلب، وأن يكون قلبه بخلاف قلب المهتدي المتبع للسنة، والراد على المخالف موافق للكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، فكيف يكون قاسي القلب؟!

وإذا غلب على شخص الرد على المخالف أو تخصص في ذلك لِتَعَيُّن ووجوب ذلك عليه، فقد تقرب إلى الله بما افترضه الله عليه، وما تقرب أحد إلى الله بشيء أحب إليه مما افترضه عليه، فلما كان رد هذا الراد محبوبًا لله، فلاشك أنه يورث المؤمن إيمانًا في قلبه، ويزيده إيمانًا فوق إيمان لا قسوة، إذ إن الطاعة تورث صاحبها خيرًا وقوة في الدين والإيمان.

فإذا كان الناقد والراد على المخالف مستقيمًا على شرع الله جامعًا للإخلاص لله والاتباع لرسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- غير مُقَوِّت ما هو أوجب من ذلك عليه، فإنه لا يتصور قسوة قلبه في تلك الحال، أما من لم يكن مخلصًا في رده ولم يكن مقسطًا عادلاً في رده أو مُفْرطًا غاليًا

أو جافيًا في غير موضع الجفاء، فإنه يكون ظالمًا أو باغيًا أو معتديًا، ويكون فيه من اتباع الهوى ما فيه، ومثل هذا يورثه الرد من قسوة القلب ما يورثه، ويكون ذلك بقدر ما عنده من اتباع الهوى ومجانبة القسط، وليس من لازم العدل والقسط الثناء على المخالف المردود عليه وذكر فضائله ومناقبه ومآثره إلا أن يستوجب المقام ذكر ذلك.

والناس رجلان رادٌّ ومردود عليه، فمن كان رادًا بحق فهو قوي الإيمان قوي القلب، وهذا شأن الرادين من أهل السنة على المخالف، ومن كان رادًا بباطل فهو قاسي القلب، وهذا شان الرادين من أهل الأهواء على أهل السنة.

فأهل السنة في ردودهم غانمون، وأهل البدعة في ردودهم غارمون.

**فمن قال:** إن الرد أو كثرة الرد تورث قسوة القلب.

**قلنا:** إن كان قائل ذلك سنيًا لمبتدع كان محقًا ومصيبًا، وإن كان قائل ذلك مبتدعًا لسني كان مبطلاً ومخطئًا ومتبعًا لهواه، وكان قاسي القلب.

فليفرق بين قائلي هذه العبارة.

فأهل السنة محقون في عقائدهم ومنهجهم وردودهم، وإن الخير لا يأتي إلا بخير، وجزاء الإحسان إحسان، فالخير يورث خيرًا، وأهل البدعة مبطلون في عقائدهم ومنهجهم وردودهم، والشر يورث شرًا.

فأهل السنة أقوياء القلوب، وأهل البدعة قساة القلوب، على أني لم اسمع سلفيًا معروفًا بالسلفية يقول هذه العبارة[١].

وقائل هذه العبارة إن كان منتسبًا في الأصل إلى مذهب السلف فلعله جرب تلك القسوة في نفسه بسبب رد أو ردود له على غيره، وهذا لا يقتضي فساد منهج الرد على المخالف، ولا يستلزم قسوة قلب الراد على المخالف عمومًا، ولا يؤخذ من ذلك قاعدة عامة مطلقة مطردة، **وإنما يقال:** إن العيب في هذه الحالة إنما يكون في الراد نفسه، كأن يكون تجاوز الحد في رده أو قصر وفرط في ذلك، فسوغ ذلك لخصمه الرد عليه فوجد الراد حقًا في كلام خصمه فأراد هو بدوره أن يغلق هذا السبيل وهذا الباب برمته على نفسه[٢]، أو يكون شغله واجب عما هو أوجب فأحس بعاقبة ذلك في قلبه -إذ يجب تقديم الأوجب فالأوجب- أو يكون قد رد على المخالف في وقت كان حقه أن يؤخر أو يقدم رده عنه، أو يكون قد رد على شخص مع أنه غير متأهل للرد عليه وإن كان متأهلاً للرد على آخر، أو يكون قد رد عن السنة بحمية وجهل أو سبق غيره من العلماء الذين لا يجوز له الافتيات عليهم والتقدم بين أيديهم، إلى غير ذلك، وقد قال تعالى: {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}

فهذه الآية قاعدة عامة مطردة في كل شيء، ولاشك أن مثل هذا يقع في قلبه من القسوة ما يقع بقدر مخالفته، وإن كان في الأصل سلفيًا أو منتسبًا إلى مذهب السلف، فرحم الله رجلاً عرف قدر نفسه، إلى غير ذلك من الاحتمالات التي تعود إلى عيب الراد نفسه لا عيب الردود أو كثرتها من حيث هي.

فمثل هذا يجب أن ينظر في نفسه ويقومها ويصلحها ويؤدبها بالعلم ويضع الأمور في مواضعها ويقدرها قدرها، فقد يكون لديه مندوحة عن الرد إذ قام به -مثلاً- من هو أعلم به منه.

أما إن كان قائل ذلك مبتدعًا صاحب هوى، **فيقال له:**

بدعتك تورث القلب قسوة، وردك على أهل السنة بالباطل يزيد ذلك الإرث، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، وكون ردودك ورثتك قسوة فما هو إلا عاقبة بدعتك الوخيمة، وجزاء السيئة السيئة بعدها، وكون ردك ورثك قسوة في القلب لا يلزم منه أن تورث ردود أهل السنة على أهل الباطل والبدعة قسوة قلب أهل السنة.

وإذا كان السلفي أو المنتسب إلى مذهب السلف يصيبه شيءٌ من قسوة القلب بسبب مخالفةٍ ما وقع فيها تتعلق برده هو أو بسوء فهمه لردود أهل العلم في بعض المواضع مثلاً، فما الظن بمن كان جامعًا لشر فوق شرٍ، وهوى فوق هوى، وبدعة فوق بدعة، وظلمة فوق ظلمة.

ولا يؤخذ من كلامي عما قد يصيب السلفي أو المنتسب إلى مذهب السلف من شيء من القسوة في قلبه أو بمعنى آخر ما يعتري قلبه ويطرأ عليه من شيء من المرض، أقول: لا يؤخذ من ذلك طعن في السلفيين ولا في المنهج السلفي بحال من الأحوال، إنما الذي يجب أن يعلم هو أننا لا ندعي

---

١- أي عبارة: الردود أو كثرة الردود تقسي القلب.

٢- أي سبيل الرد على المخالف.

العصمة لأفراد السلفيين أو تبرئتهم فردًا فردًا من أي هوى، فهم متفاوتون في درجات الإيمان والبعد عن الهوى والاحتراز من المعاصي فقد يقع بعضهم في شيء من الهوى.

والواجب على من وقع منهم في شيء من هذه المبادرة بالتوبة النصوح، ومن اتقى الله ما استطاع فإنه لا يكلَف فوق ذلك، والمطلوب هو أن يسعى السلفي في تكميل نفسه بفعل المأمورات واجتناب المنهيات على قدر الاستطاعة.

**ثم يقال بعد:** إن الشدة والغلظة من السني على أهل الكفر والنفاق والبدعة محمود، وإن اللين والرحمة محمودة منه في حق المؤمنين الصادقين والسلفيين، قال -تعالى-:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}

وقال: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ}

وقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}

وقال: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً}

فإن كان قائل ذلك صاحب هوى وكان قاصدًا إسكات أهل السنة عن الردود على أهل الأهواء، وإلجامهم وتكميم أفواههم عن رد الباطل، **فنقول له:** إن أهل السنة يردون الباطل على صاحبه كائنًا من كان، سواء رد أهل الأهواء على أهل السنة أم لا، فليبشر أهل الأهواء بفضيحة أهل السنة لهم وهتك أستارهم، وليعلموا أن أهل السنة ينشدون صحة قلوبهم وقوتها في ردهم على المبطل باطله، ويخشون من ضعف قلوبهم ووهنها ومرضها إن لم يفعلوا ذلك.

وإذا كان أهل الأهواء، الذين هم قساة القلوب يطعنون في أهل السنة، أفلا يكون أهل السنة الذين هم صحاح القلوب وسليموا القلوب أولى بالطعن في أهل الأهواء؟

بلى والله.

إذا علمت ما تقدم، فاعلم أن أهل العلم الذين يردون الباطل بالحق أصح الناس وأسلمهم وأقواهم قلوبًا، وأن أهل الباطل أقسى الناس قلوبًا.

فأهل السنة يذبون الباطل عن دين الله، ويذودون كل غريب ودخيل عن حياضه، وكما أنهم يدافعون عن دين الله، فإن الله يحفظهم ويعينهم وينصرهم ويؤيدهم ويدافع عنهم ويذب عنهم، والجزاء من جنس العمل، وهذا يقتضي صحة قلوبهم وسلامتها من الفساد والمرض والعلة والقسوة، بخلاف أهل الباطل الرادين على أهل الحق بالباطل، فشأنهم بخلاف أهل الحق في ذلك كله.

**فتبين بما سبق أن قول القائل:**

إن الردود أو كثرتها تقسي القلب، قول باطل بهذا الإطلاق، مخالف للكتاب والسنة في رد الباطل والرد على المبطلين.

وكيف تصح هذه الدعوى؟! وقد قال الله -عز وجل-:

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}

فالكتاب الذي أنزله الله لبيان ما اختلف فيه، جعله الله هدى ورحمة للمؤمنين بخلاف غير المؤمنين، فهم محرومون من ذلك كله، قال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}

وقال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}

وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً}

وقال: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}

وقال -تعالى-: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن بيان المختلف فيه والرد على المخالف ضرورة دينية يهدي بها الله المؤمنين والطائعين، ويضل بها الكافرين والعاصين والمبتدعين والمعاندين ويزيد بها المؤمنين إيمانًا ويزيد الكافرين كفرًا والمبتدعين ضلالاً.

ولاشك في أن تزكية العدول يدخل في باب موالاة المؤمنين ومحبتهم في الله وموادتهم، كما أن جرح المجروحين يدخل في باب معاداة هؤلاء المجروحين وبغضهم في الله، ولاشك في دخول باب الولاء والبراء في توحيد الله والإيمان به، قال تعالى:

{لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

وإذا ثبت أن أهل الأهواء قساة القلوب -وكل بحسبه- فإنه يجب على المسلم الحذر من هؤلاء، فإن من القَرَف التلف، وإذا كان رعاة الإبل فيهم من قسوة القلب وغلظته ما فيه بخلاف رعاة الغنم الذين فيهم السكينة والوقار، فما الظن بمن جاور وصحب قساة القلوب من بني جنسه؟! ومن جالس جانس، والطباع سرَّاقة ونقالة.

أيقال بعد هذا: إن الردود أو كثرة الردود تقسي القلب؟!

نعوذ بالله من شر هذه المقالة.

**والصواب أن يقال**: إن الردود بضوابطها تنجي صاحبها من قسوة القلب، وتزيد الإيمان فيه.

هذا، ورد هذه الشبهة يحتمل بسطًا أكثر من ذلك، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليمًا

تم تسويده في ليلة الثلاثاء الموافق السادس عشر من شهر الله المحرم لسنة ثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية[1]

وكتب

أبو بكر بن ماهر بن عطية بن جمعة

أبو عبد الله

---

١- تم التعديل في يوم الخميس، الموافق السادس عشر من شهر رمضان، لسنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية -على صاحبها الصلاة والسلام-.